الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا فى غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر فى صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضةٌ حادة لأخذ معاوية البيعةَ لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن على بن أبى طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجوّ لابن الزبير الذى عاذَ بمكة ، وقد اتخذ من قَتْل الحسين أداة للتشنيع على يزيد وعُمّاله ، وثارت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحَرّة المشهورة . فاتسعت الجروح فى الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كَلْب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يَعُدْ لقريش ولا للحجاز عامة شىء فى الحكم . وحقًّا أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها فى الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون فى حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكّمونها فى رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يَلُون الخلافة كما ولِيها يزيد ، لا بسلطان شرعى ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتى أولا بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يَفْضلونه بسابقة آبائهم فى الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذى نَكَبَ المدينة فى وقعة الحَرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهبّ كثير من العرب حتى من الخوارج للذَّوْد عن البلد الحرام . وضُرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه . وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذى اختير للجماعة ، فأبوه من كبار الصحابة المقدَّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قويَّ الشخصية تقيا وشارك فى فتوح إفريقية ، وسرعان ما انضمت تحت لوائه قيس فى الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السُّلَمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية بعهد منه ، ولكنه توفِّى سريعاً ، وبدا كأن حكم بنى أمية قد انتهى ، حتى ليقول ابن عَرَادة بخراسان[1] :

أبنى أُميَّةَ إنَّ آخر مُلْككم جَسَدٌ بحُوَّارين ثَمَّ مقيمُ[2]
طرقتْ منيَّتُهُ وعند وِسادِه كوبٌ وزِقٌّ راعفٌ مَرثوم[3]
ومُرِنَّةٌ تبكى على نَشْوانهِ بالصَّنْج تقعد تارةً وتقوم[4]

وظل ابن الزبير يقود الولايات التى تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن الحكم أن ظهر بالشام تَسْنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقَيْسِ الشام وقعةَ مَرْج راهط المشهورة ، فخلصتْ له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ، وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفِّى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان سياسيًّا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله ، وكان فى ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويَضْرب الرواة لذلك مثلا هو أن فَضَالة بن شريك الأسدى ، وقيل بل ابنه ، وفَد عليه[5]

---

(١) طبرى ٤/٤٢١ .
(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها يزيد .
(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى تقطرت منه الخمر .
(٤) مرنة : مغنية .
(٥) انظر فى هذه الوفادة ترجمة فضالة بن شريك فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٧١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة ٣/٢٢٤ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

obeikandi.com

فقال له: إن ناقتى قد نَقِبَتْ[1] وَدَبِرَتْ[2]، فقال: ارْقَعْها بجلْد[3]، واخْصِفْها بهُلْبٍ[4]، وسِرِ البَرْدَيْن[5] بها تصحّ، فقال فضالة: إنى أتيتك مُسْتحمِلا ولم آتك مستوصفاً، فلعن الله ناقة حملتنى إليك، فقال له ابن الزبير: إنّ[6] وراكبها. وانصرف فضّالة من عنده، وهو يقول:

شكوتُ إليه أنْ نَقِبَتْ قَلوصى — فردَّ جوابَ مشدودِ الصِّفاد[7]

يَضِنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكًا — محالٌ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشيد ببنى أمية وكرمهم الفياض، ويقول إنه صائر إليهم. ولعل فى هذا الحادث ما يفسر السبب فى قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزبير فى الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم، وكأنما لم تكن تَعْنيه هذه النبال.

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون فى صف ابن الزبير، وإنما معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه، ومع ذلك فقد وقف فى صَفِّه كثير من الشعراء، لا فى الحجاز حيث كان يدعو لنفسه بل بين قيس فى الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق. ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العصبيات والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل القيسيّة من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية، وأن الشعراء فى الطرفين جميعاً سلّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين، أو بعبارة أخرى مفاخرين ومهاجين هجاء مريراً. ولم يكن الطرفان يتناقضان فى العصبية القبيلية فحسب، بل كانا أيضاً يتناقضان فى السياسة، إذ كان هوى قيس مع ابن الزبير وهوى القبائل اليمنية وتغلب مع بنى أمية، ومن ثم اختلطت فى أشعارهم العصبية بالسياسة، ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خفّ القَطين» التى ضمنها الأخطل هجاء قيس ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نقبت: من نقب البعير إذا حفى ورقت أخفافه.

(٢) دبرت: أصابها جرح فى ظهرها.

(٣) ارقعها بجلد: يريد أن يجعل لها خفا من جلد.

(٤) الهلب: الشعر. الخصف: الخرز. يريد أن يخرز الخف به ليقيه.

(٥) البردين: الغداة والعشى.

(٦) إن هنا بمعنى نعم.

(٧) القلوص: الناقة. الصفاد: ما يشد به الأسير من قيد ونحوه.

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَـر بن الحارث نجدها تقطر عصبية(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلبَ وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو فى تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدل الذى يناصر بنى أمية ، يقول (٢) :

أفى الله أما بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ　　فيَحْيَى وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ

كذبتم وبيتِ الله لا تقتلونه　　ولما يكن يومٌ أغرُّ محجَّلُ(٣)

ولما يكن للمشرفيَّة فوقكم　　شعاعٌ كقَرْنِ الشمس حين ترجَّل(٤)

وعلى هذا النحو كانت تختلط فى أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترُّون ذلك طويلا ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحاميها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذى انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا فى النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلَّتْ غيوثه على الشعراء ، فمدحه منهم كثيرون مثل أعْشَى همدان وُدكَيْن الفُقَيْمى ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، إنما يهمنا الشعر السياسى الذى كان يدافع عن نظرية ابن الزبير فى الخلافة ، هاجياً ابنى أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثَمَّ ينبغى أن نقف عنده قليلا .

ابن (٥) قيس الرقيات

اختلف الرواة فى اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن فى أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا فى اسمه اختلفوا فى

---

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى فى مواضع متفرقة والأغانى (ساسى) ١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبرى ٤١٩/٤ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبقى ولا يذر

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر فى ترجمة ابن قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٢٣/١ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب ٢٦٥/٣ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣١٦/١ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ . وله ديوان نشره رودكناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه تحقيقا علميا وأعاد نشره فى بيروت محمد يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينوّن قيس وإما مضافة . راجع فى ذلك الخزانة .

obeikandl.com

سبب نعته بالرُّقَيَّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبِّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شُرَيْح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُهَيْب بن ضِباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعيص بن عامر بن لؤي. وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلا ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيح وفِنْد ، وهم من مغني المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها [1] ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقِب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا وَلِيَ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد، ومن ثَمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته [2] ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويترنّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرَّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، فهزته تلك الأنباء هزًّا عنيفاً، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حارًّا ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية : يقول :

إن الحــوادث بالمدينة قد ... أَوْجَعْنَنِى وقَــرَعْنَ مَرْوَتِيَــهْ [3]

---

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .

(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٥ / ٧٢ وما بعدها .

(٣) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

obeikandl.com

يُنْعَى بنو عَبْد وإخوتهم ... حــلَّ الهلاك على أقارِبيَه [١]

ونُعِى أسامةُ لى وإخوتُه ... فظللتُ مُسْتَكًّا مَسامعيــه [٢]

تبكى لهم أسماءُ مُعْــولةً ... وتقــول ليلى : وارَزِيَّتِيَــهْ

واللهِ أبرحُ فى مقــدِّمةٍ ... أَهْدِى الجيوشَ ، علىَّ شِكَّتِيَهْ [٣]

حتى أفجِّعهم بإخــوتهم ... وأسوقَ نِسْوتهم بِنسْوَتِيَهْ

ولم يلبث يزيد أن توفى ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرَّبنا فى غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُباب بطل قيس فى بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعيًّا أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرَّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغى أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا ، بحيث تكون حاضرتها فى الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كَلْبٍ وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرة المشئومة. وهو يصدر فى ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التى أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثَمّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة فى أن ينقضَّ حكمهم فى الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التى يفتتحها بقوله :

أقفرتْ بعد عَبْد شَمْسٍ كَداءُ ... فكُدَىٌّ فالرُّكْنُ فالبَطْحاءُ [٤]

ومضى يطيل فى ذكر الأماكن التى هجرها الأمويون إلى دمشق وربوع

---

(١) بنو عبد : عشيرته نسبها إلى جده السابع .

(٢) استكت المسامع : صمت وضاقت ، هو مثل يضرب للنبأ الشديد يمرك سامعه .

(٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة : السلاح التام .

(٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن : ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت فى الجاهلية .

obeikandl.com

الشام منوِّهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بُلْداناً وشِيَعاً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرِّح بذلك فيقول :

حَبَّذا العيشُ حين قومى جميعٌ لم تفرَّق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْـ ـكِ قريشٍ وتَشْمَتَ الأعداءُ

ويمضى فيرد على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تُنْزَعَ الخلافة من قريش وتُرَدَّ إلى العرب ، بل إلى المسلمين جميعاً ، يقول :

أيها المشتَهِى فناء قريشٍ بِيَدِ الله عُمْرُها والفناءُ[1]
إن تودِّعْ من البلاد قريشٌ لا يكنْ بعدهم لحىٍّ بقاءُ

فقريش هى عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجَّه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قد عَمِرنا فَمُتْ بدائك غيظاً لا تميتنَّ غيرَك الأدْواءُ[2]

ويأخذ فى الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفراً الطيار والزبير بن العوَّام حوارىَّ النبىّ وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفى ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحَى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـهِ تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
مُلْكهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا بهِ كبْرياءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها فى الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يحجُّ إليه الناس من كل فجٍّ عميق ، ويأسى لحَرْق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرَّة ، ويُشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

(١) عمرها : يريد بقاءها .
(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلا ، يشير إلى خلافة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين فى كربلاء يقول :

كيف نَوْمى على الفِراش ولمّا تَشْمَلِ الشَّامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهل الشَّيْخَ عن بَنِيه وتُبْــدِى عن بُراها العقيلةُ العَذْراءُ[1]
أنا عنكم بنى أميــة مُزْوَرٌّ وأنتم فى نفسىَ الأعداءُ
إنَّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أوجعتْنى كان منكم لئن قُتِلْتُم شفاءُ[2]

وهذه هى الأنغام السياسية التى كان يوقّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشى بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْج راهط التى هُزم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المُبيرة . ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه فى هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيباً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله فى عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهى غاضبة عليه ليترضّاها[3] :

جِنِّيَّةٌ برزتْ لتقتلنى مطليَّــةُ الأصداغ بالمِسْكِ
عَجبًا لمثلِك لا يكون له خَرْجُ العِراقِ ومِنْبَرُ المُلْكِ[4]
تَرْمى لتقتلنا بأسهمها ونزنُّها بالحلم والنُّسْكِ[5]

---

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .
(٢) الطف : من ضواحى الكوفة حيث كربلاء التى قتل فيها الحسين .
(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١١ / ١٧٦ وقارن بالديوان ص١٤١ وقد وصل القطعة بأبيات فى أم البنين لاشك فى أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .
(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة كأنه يتمناها لمصعب .
(٥) نزنها : ننسبها إلى .

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرنْ هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذى كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما فى صورة تؤذيهما كقوله فى عاتكة :

بَدتْ لىَ فى أترابها فقَتَلْنَنى　　　كذلك يقتلْن الرجال كذلكا
وقالتْ لو أنَّا نستطيع لزاركم　　　طبيبان منا عالمانِ بدائكا[1]

ويتخيل أم البنين جاءته فى الُحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهى تمعن معه فى اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أتتْنى فى المنام فقُلْـ　　　ـتُ هذا حين أعْقَبُها[2]
فلما أنْ فَرِحْتُ بها　　　ومال علىَّ أعْذَبُها[3]
شربتُ بريقها حتى　　　نَهِلْتُ وبِتُّ أشْرِبُها[4]
وبِتُّ ضجيعها جَذْلا　　　نَ تعجبنى وأعجبها[5]
وأيقظنا منادٍ فى　　　صلاة الصبح يرْقُبها[6]

وظل على هذا النحو يصول و يجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذى يمثّل الحكم القرشى الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتّى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه فى دَيْر الجاثليق ، وقد انفضّ عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقْتَل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجّعاً على صاحبه آسياً لانفضاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظنّاً

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء الحب الذى سرى فى نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقباها لى أى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فمها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة[١] على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثَمَّ رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمِّماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر فى المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبَّاه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفى رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مَثَل بين يديه ينشده بائيته التى يقول فيها :

ما نقَموا من بنى أمية إ لاَّ أنهم يَحْلُمُون إن غضبوا
وأنهم مَعْدِن الملوك فلا تصلحُ إلا عليهمُ العرَبُ
إن الفَنيقَ الذى أبوه أبو الـ عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ[٢]
خليفةُ الله فوق منبرِهِ جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب
يَعْتَدِل التاج فوق مفرقِهِ على جَبينٍ كأنه الذَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِبْ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويُعْطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش فى ظل ابن جعفر يُغْدق عليه من بِرِّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلا ، حتى إذا فكر عبد الملك فى صَرْف ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول فى بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتهْنِهِ مصرُ والعراق وما بالشام من بَزِّه ومن ذهبه[٣]
يَخْلُفك البِيضُ من بنيك كما يَخْلُف عودُ النُّضار فى شُعَبه[٤]
نحن على بَيْعة الرسول وما أعطىَ من عُجْمه ومن عَرَبه

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة أوربا) ص٤١٢ .
(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .
(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعَّده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقرّ له قرار وضاقت الدنيا فى عينيه فنظم قصيدة بديعة يذمّ فيها مـن يغتابونه عند عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّر الظَّبْىُ والغُرابُ بسُعْدى مرحبـاً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من تَحَسّس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد على عبد الملك من حين إلى حين فى ديوانه مدائح له مختلفة،والطريف أنه يستّهل بعضها بغزله بأم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف جمالها ووقارها متلطفاً . وليس فى ديوانه مدائح فى الوليد مما يدل على أنه إن كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلا . وفى ديوانه قصائد مختلفة مدح بها عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به و بجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أتيناك نُثْنى بالذى أنت أهله عليك كما يُثْنى على الروض جارُها

إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنت مَنارُها

وممن مدحهم ونوَّه بهم طويلا طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفىّ بيته المشهور من مرثيـة فيه بديعة :

نضَّر الله أعْظُماً دفنوها بسِجِسْتانَ طلحةَ الطلحاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد حين هُزم فى حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجَّائين فى عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو فى الطليعة من شعراء الغزل المكيين ، ولو أنه لم يَشْغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وتَخَلَّص للغزل على شاكلة عمر بن أبى ربيعة لما قصَّر عنه فى هذا الفن ، وقد رأيناه فى مطلع حياته يلزم

obeikandl.com

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع فى موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى فى مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطْبِع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقَيٌّ بعيشِكم لا تَهْجُرينا ... وَمَنِّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا فى غَدٍ ما شئتِ إنَّا ... نُحِبُّ وإن مَطلتِ الواعدينا
فإما تُنْجِزِى عِدَتى وإما ... نعيش بما نؤمل منك حِينا

وقوله :

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبى ... فواكبدى من الحبِّ
وقالوا اداؤُه طبٌّ ... ألا بل حبُّها طِبِّى

وقوله :

حبَّ ذاك الدَّلُّ والغُنُجُ ... والتى فى عينها دَعَجُ (١)
والتى إن حدثتْ كذبتْ ... والتى فى وعدها خَلَجُ (٢)
خَبِّرونى هل على رجل ... عاشق فى قُبْلةٍ حَرَجُ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّين باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلا يملؤه بالصبابة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

---

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل والمزح . الدعج : شدة سواد العين .

(٢) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

٢

شعراء الخوارج

رأينا فى غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وصُفْرية ونَجدات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد فى سبيل عقيدتها فى ولاية الأمة وأنه ينبغى أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشيًّا . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الدينى الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج فى هذا العصر للحرب ، مستحلِّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهى معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوّار ترافقهم السيوف فى غدوهم ورواحهم وفى استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا ، ومن ثَمَّ كان شعرهم فى جملته حماسيًّا ، وهى حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، عصبيات القبيلة التى كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التى تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا فى سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلُّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا فى معسكراتهم ، وبذلك مزَّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالين فى نضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطِّنين أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طُعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربِّ لترضى) [١] وكأنما وهبوا أنفسهم للموت . ولهم فى ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوّنون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدّمه الحجاج إلى القتل ، فأنشد [٢] :

ما رغبةُ النفس فى الحيـاة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقُهـا
وأيقنتْ أنهـا تعود كما كان بَراها بالأمس خالقها [٣]
يوشك من فرَّ من منيَّتهِ فى بعض غِـرَّاته يوافقها
من لم يمتْ عَبْطَةً يمتْ هـرما والموت كأْسٌ والمرءُ ذائقها [٤]

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجى ، الموت قَعْصًا بالرماح ، حتّى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبْناء وكان من الأزارقة :

أَبيتُ وسِرْبالى دِلاصٌ حصينة ومِغْفَرُها والسيف فوق الحيازم [٥]
أُريد ثواب الله يوماً بطَعْنَـةٍ غموسٍ كشِدْقِ العنبرىِّ بن سالم [٦]

فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة [٧] :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معـاراتها تدعو إلىَّ حِماميا [٨]
أُنازعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّب الموتَ القِراعُ لقد أَنَى لموتىَ أن يدنو لطول قراعيا [٩]

---

(١) المبرد ص ٥٦٤ .
(٢) المبرد ص ٤٣ .
(٣) براها : خلقها .
(٤) عبطة : شابا .
(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح .
(٦) غموس : واسعة . العنبرى بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فيه .
(٧) انظر فى ترجمة قطرى وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمالى المرتضى ١ / ٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد والطبرى والبيان والتبيين .
(٨) تعاريني : تطلبنى عارية . الحمام : الموت .
(٩) القراع : مضاربة السيوف فى الحرب . أنى : آن .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة وينزح عنها إلى الحياة الباقية التى لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملَّ دنياه . وتصوِّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهى أم حكيم ، إذ تقول [١] :

أحمل رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مَلِلْتُ دَهْنه وغَسْله
ألا فَتًى يحمل عنى ثِقْلَهْ

وكأنما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس فى خروجه [٢] :

أبعد ابن وهب ذى النَّزاهة والتُّقَى ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أُحبُّ بقاءً أو أُرجِّى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حِصْن ومالكا
فيارَبِّ سَلِّمْ نيتى وبصيرتى وهَبْ لى التُّقى حتى ألاقى أولئكا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبى والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طَلِبته ، فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكأن الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم السعادة المنشودة ، وهى سعادة يطلبها كل خارجى لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الرَّاسبى حين قُتل ابنها فى يوم دولاب [٣] :

اللهُ أيَّد عِمْرانًا وطهَّره وكان عمران يدعو الله فى السَّحَرِ
يدعوه سِرًّا وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدى مِلْحادَةٍ غُدَرِ [٤]

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء ، إذ يصوِّرون استشهاد قتلاهم زُلْفَى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/١٥٠ وتريد أم حكيم بدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .
(٢) المبرد ص ٥٨٦ .
(٣) أغانى ٦/١٤٥ .
(٤) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين فى رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبى حمزة ومن قُتلَ من أصحابهما (١) :

يارَبِّ أَسْلِكْنى سبيلهمُ ذا العَرْش واشْدُدْ بالتُّقَى أَزْرِى
فى فتيةٍ صبَروا نفوسهمُ للمشرفيـّة والقَنَـا السُّمْرِ (٢)
متـأَهِّبين لكل صالحةٍ ناهين من لاقوا عن النُّكرِ

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كم من أخٍ لك قد فُجِعْتَ بهِ قــوّامِ ليلته إلى الفَجْرِ
متــأَوِّه يتلو قــوارعَ من آى القُران مفزّع الصَّدْرِ

ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرِعت الرماح وسُلّت السيوف ورَعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب فى أن هذه صورة جديدة فى الرثاء ، تخالف ما نألفه عنـد غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خـلال الكرم والمروءة ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزَهـْرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذى يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذى يفتح لهم أبواب الفراديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسى ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قُدُماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعَدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب. ولكن نحسُّ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلَّحة إلى حين ، وبذلك نفسر كثْرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١١ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفراً منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدّ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يتقلب لهم الدهر المِجَنّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين فى رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد [١] من أن أبا خالد القنانى استحبّ القعود ، فلامه قَطَرِىّ بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالدٍ يا انْفِرْ فلستَ بخالدٍ … وما جعل الرَّحْمنُ عُذْرًا لقاعدِ [٢]
أتزعم أن الخارجىّ على الهُدَى … وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ

فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلىّ حُبًّا … بناتى إنهن من الضِّعافِ
أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعدى … وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافى [٣]

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف فى الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقّاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدَّماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً فى الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا فى مقالتهم دون رفق ودون تفكير عميق فى المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنابذ فرقاً وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة فى أشعارهم ، هى أنهم يُبدئون ويعيدون فى معانيهم التى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا فى أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثَمّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجى أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ .
(٢) يا انفر يا للتنبيه أو فى تقدير حذف منادى مثل يا أخى .
(٣) الرنق : الكدر .

obeikandl.com

فى الأغانى فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة فى ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطرى بن الفجاءة ، ونسبها المدائنى إلى صالح بن عبد الله العَبْشَمِىّ . وقال خالد بن خِداش : بل قائلها عمر والقَنَا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم[1] . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح .

عمران[2] بن حِطّان

بَصْرِىٌّ سَدُوسِىٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج . ونلقاه فى عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه[3] . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُرْوَى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت فى الجنة ، قال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : لأنك أُعطيتَ مثلى فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر فى الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحتْ جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[4] :

يا ضربةً من تَقِىٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأَذكرهُ حيناً فأَحسبه ... أوفى البَرِيَّة عند الله ميزانا

ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر فى الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

---

(١) أغانى ٦/١٤٧ وما بعدها .
(٢) انظر فى ترجمة عمران الأغانى (ساسى) ١٦/١٤٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما بعدها والإصابة ٥/١٨١ وخزانة الأدب ٢/٤٣٦ وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ .
(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٤) انظر فى نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١ والخزانة ٢/٤٣٦ .

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغْضاً　　وحُبًّا للخروج أبو بـلالِ

أُحاذر أن أموت على فراشي　　وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى(١)

ولو أنى علمت بأن حَتْفى　　كحتف أبى بلالٍ لم أُبال

فمن يكُ هَمُّهُ الدنيا فإنى　　لها والله ربِّ البيت قالى(٢)

فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبى بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلا ، حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه　　ما الناس بعدك يامرداس بالناسِ

وكأن الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ، ومن ثَمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرية ودعا إلى القعود ، حتى عُدَّ رئيس قَعَدَتهم . ولم تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبى خالد(٣) ، إنما قعد به — فى أغلب الظن — حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشْغف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى الحروب ويُغْرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ، ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ، فهلع الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامةٌ　　رَبْداءُ تنفر من صَفير الصافرِ(٤)

هلا برزتَ إلى غَزالة فى الضُّحَى　　بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر(٥)

---

(١) العوالى : الرماح .

(٢) قالى : كاره .

(٣) نسبت أبيات أبى خالد إلى عمران فى ترجمته بالأغانى ، والأرجح أنها لأبى خالد كما جاء عند المبرد .

(٤) ربداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .

(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع الحجاج ورعبه .

obeikandi.com

وغضب الحجاج واشتد فى طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرَّ منه على وجهه يتنقَّل فى القبائل منتسباً فى كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامى بالشام . فانتسب له أزديا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه ، وكان روح سميرا لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه فى أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإنى تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفًا لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلا ما تروِّعنى ... فيه روائع من إنسٍ ومن جانِ[1]
حتى أردتَ بىَ العظمى فأدركنى ... ما أدرك الناسَ من خوف ابن مَرْوان

ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث فى قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعيًّا ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزْدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزْدِيًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبَرناك ، فلما أمسى هرب وخلَّف فى منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التى أصبحتْ يَعْيَى بها زُفَرٌ ... أعيتْ عياءً على رَوْح بن زِنْباعِ

وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومًا من الأزد فى روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفى سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة ترويها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الحياة الكريمة التى يحياها

---

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفزع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة فى الموت ، وعبر عن ذلك فى صور مختلفة ، كأن يصوِّر تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُّ العيش فيها وأُولِعْنا بحرصٍ وانتظارِ
ولا تَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها ولا فى الأمر نأخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ رائحٍ منهم وسارى[1]

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى بجياعهم وعُراتهم فأفٌ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوىّ . ولا يُخْفى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأمونها على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ[2]

وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعْجز الموتَ شىءٌ دون خالقِه والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَّضِعٌ للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ[3]

فالموت سيموت فى النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدرى شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه ، فتعرض له يقول :

أيها المادح العبادَ لِيُعْطَى إن لله ما بأيدى العبادِ

---

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلا .
(٢) تقشع : تزول .
(٣) جلل : عظيم .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا فى عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطِّرِمَّاح [1]

شاعر طائى نشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل فى بنى تَيمْ اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمْت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسَخ كلامه فى قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحَّه حتى مات عليه . واختلف الرواة فى الفرقة التى دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل فى فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يحرِّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمْض قعوده فى مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو مـا صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرىٌّ مسالم . ويظهر أنه كان يمضى فى السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفِّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادُّهم ويصادقهم ، حتى لنراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْت والطِّرِمَّاح ، كان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا . وكان الطرماح خارجيًّا من الصُّفْرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يَجْر بينهما صَرْمٌ ولا جَفْوةٌ ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه » . وأكبر الظن أن الذى وثَّق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هى تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُرْوَى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرَّى بفارس حيث عُنى بتأديب الناشئة

---

(١) انظر فى ترجمة الطرماح أغانى (دار الكتب) ١٢/ ٣٥ والشعر والشعراء ٢/ ٥٦٦ والعينى ٢/ ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ١/ ٤٦ ، ٢/ ٣٢٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٥٢ والخزانة ٣/ ٤١٨ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

فيها ، ويَـرْوى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرَّىِّ فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّه عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففى أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحَّاه مخلد ، ودُعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفى أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى الذى ولى العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحًّا فى طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبى صُفْرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومرَّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت فى البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطْوَى فيها من عصبية وهو خارجى ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجى يأتى على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُـقْذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله فى تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها   حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وَحْياً أن يعذّبها   إن لم تَعُدْ لقتال الأَزد لم تَعُدِ
لا تأمننَّ تميميـّاً على جَسَدٍ   قد مات ما لم تُزَايِل أَعْظُمُ الجسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه فى الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدّاً بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادنى حُبًّا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلِ[١]
وأنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل

والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادٌ جَوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
لأكسبَ مالا أو أؤُولَ إلى غِنىً من الله يكفينى عِداتِ الخلائف[٢]
فيا ربِّ إن حانتْ وفاتى فلا تكن على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضر المطارف[٣]
ولكن أحِنْ يومى سعيداً بعُصْبةٍ يصابون فى فَجٍّ من الأرض خائفِ
فوارسُ من شيبان ألَّف بينهم تُقَى الله نَزَّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح غنيًّا مثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّراةِ إنهمُ إذا الكَرى مال بالطُّلا أرِقوا[٤]
يرجِّعــون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصُّدورُ تَنْفَلِقُ

---

(١) غير طائل : خسيس .
(٢) عدات : جمع عدة ويريد بها الصلة . الخلائف : جمع خليفة .
(٣) الشرجع : النعش .
(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أرجيٍّ الحياة بعدهمُ   وقد مضى مُؤْنِسِىٌّ فانطلقوا
قومٌ شِحَاحٌ على اعتقادهمُ   بالفَوْز مما يُخاف قد وَثِقوا

وعلى قَبَس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين والمساكين ، وما جاء فيه أيضًا من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت يداه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلُّ حَىٍّ مستكملٌ عِدَّة العُمْـ   ـرِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهْ[1]
عجبًا ما عجبتُ للجامع الما   ل يباهى به ويَرْتَفِدهْ[2]
ويُضيع الذى يصيِّره اللـ   ـه إليه فليس يعتقدهْ
يوم لا ينفع المخوَّل ذا الثر   وة خِلاَّنُه ولا وَلَدُهْ[3]
يوم يُؤْتَى به وخصماه وسط الـ   ـجِنِّ والإِنْس رِجْلُه ويدهْ
خاشعَ الصَّوْت ليس ينفعه ثَـ   ـمَّ أمانيهُ ولا لَدَدُهْ

وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ، فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيّها ، وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ؛ وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد به أن يدور فى أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور فى أفواه المتأدبين حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمى محض . ويصوِّر اللغويون مدى إغرابه فى شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور سُئل عن ثمانى عشرة كلمة آبدة فى أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن حِسَّه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغوفاً بإدخال الألفاظ النبطية فى كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

---

(١) مود : ميت .
(٢) يرتفده : يكتسبه .
(٣) المخول : الثرى .

٣

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو فى الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغى أن تُرَدَّ عليهم . وتكوَّنت فى أثناء ذلك فرقة الكَيْسانية التى دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سَبَأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر ، وأنه ورث عن علىٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس يتنقل فى أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفىَّ قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملأ الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموى فتظهر فرقة الزَّيْدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك فى حديثنا عن السياسة .

وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج فى هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيِّر شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة فى أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف فى العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يَرْعَوْن فيهم إلاًّ ولا ذِمّة ، وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرْقَأُ ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمَّ ما يميِّز الشعر الشيعىَّ فى هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولا ثم على زيد بن على وابنه يحيى ؛ زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قَتَّة يرثى الحسين [1] :

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ١٢١ وانظر أيضاً فى مرثى الحسين الطبرى ٤/٢٠٩ وما بعدها وأغانى (ساسى) ١٤/١٥٨ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

مررتُ على أبيات آلِ محمَّدٍ فلم أرها كعهدها يوم حُلَّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّـةً وقد عظمتْ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحتْ مريضةً لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرَّتِ
وقد أعولتْ تبكى السماءُ لفقـــدهِ وأنجُمُها ناحتْ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير من يصورها عوف[1] بن عبد الله بن الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

ليَبْكِ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقٌ وعند غسوق الليل من كان باكيا
ويالَيتنى إذ كان كنتُ شهِدتُه فضاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهدًا وأعملتُ سَيْفى فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون فى الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحُرّ ، ويروى أنه خرج فى جماعة من أصحابه حتى أتى كَرْبَلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو ينشد[2] :

ويا ندمى أن لا أكون نصرتُه ألا كلُّ نفسٍ لا تسدِّد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حُماتهِ لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَلُ زيد بن على بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبنى أمية ومهددين من مثل قول المفضَّل المطَّلبى[3] :

---

(١) انظر ترجمة عوف فى معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٢٦ .
(٢) طبرى ٤/٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرْقَىْ وجُودى ... بدمعك ليس ذا حينَ الجمود[١]
وكيف تضنٌّ بالعبَرات عيني ... وتطمــع بعد زيدٍ فى الهجودِ[٢]
وكيف لها الرٌّقاد ولم ترائى ... جيادَ الخيل تَعْدُو بالأُسود
بأَيديهم صفــائحُ مرهفاتٌ ... صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ
بها نَسْقى النفوس إذا التقينا ... ونقتـــل كلَّ جبارٍ عنيدِ
ونُحْكم فى بنى الحكَم العوالى ... ونجعلهم بها مثـــل الحَصيد[٣]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يَطْوى فى نفسه حزناً عميقاً على أئمته المستشهدين ورغبة عنيفة فى سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم ويعدُّون أنفاسهم عدًّا . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هى نظرية التقية ، فمن حق الشيعى أن يخفى عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرِّض نفسه للخطر بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سنرى عند كثيِّر والكميت عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكنَّان لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهى أحياناً إلى دعوة الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين ولىّ خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرْو يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها[٤] :

ألا أَبلغْ جماعةَ أهلِ مَرْو ... على ما كان من نَـأْىٍ وبُعْـــدِ
رسالةَ ناصحٍ يُهْدى سلاماً ... ويـأْمر فى الذى ركبوا بجِدِّ
فلا تَهنوا ولا تَرْضوْا بخَسْفٍ ... ولاَ يْغرُرْكُمُ أسدٌ بعَهْـــدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُوداً ... على أهل الضَّلالة والتعدِّى

(١) ترق : من رقأ الدمع إذا جف وسكن . جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .
(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالى : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٥/٤٣٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغيظ على بنى أمية فقد كانت تمتلىء بالحبّ لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبى الأسود الدُّؤلى وقد عابه قوم بتشيعه : [1]

أُحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا ... وعبّاسا وحمزة والوصيّا [2]

أُحبهمُ لحب الله حتّى ... أَجىء إذا بُعثتُ على هَوَيّا [3]

هَوًى أُعْطيته منذ استدارتْ ... رَحَى الإسلام لم يُعْدَلْ سَوِيّا [4]

بنو عَم النبىّ وأقـــربوه ... أَحبُّ الناس كلِّهم إليّــا

فإن يك حبُّهم رُشْدًا أُصِبْهُ ... ولستُ بمخطئٍ إن كان غَيّا

ويقول عبد الله بن كثيّر السَّهمى فى نفس المعنى [5] :

إن امرءًا أمستْ معايبهُ ... حبُّ النبىِّ لغيرُ ذى ذَنْبِ

وبنى أَبى حسن ووالدِهم ... مَنْ طاب فى الأرحام والصُّلْبِ

أَيُعَدُّ ذنبًا أن أُحبَّهُمُ ... بل حبُّهم كفّارة الذنْبِ

فهم يحبون آل البيت لجدهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبى الأسود الدؤلى فى حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، فى كلمة له [6] :

فحسبى من الدنيا كَفافٌ يُقيمنى ... وأثوابُ كتّان أزورُ بها قبرى [7]

وحُبّى ذوى قُرْبى النبىِّ محمّدٍ ... فما سَالَنا إلا المودّةَ من أجْرِ [8]

---

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالوصى على بن أبى طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبى أوصى له بالخلافة .

(٣) على هويا : على هواى .

(٤) لم يعدل سوياً : لا مثيل له .

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سالنا بالتخفيف : لغة فى سأل . وهو يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) .

obeikandl.com

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم فى عصر بنى أمية منازع قوية من حب آل البيت حبًّا قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بنى أمية ، ثورة تَطْوى فى داخلها رغبة شديدة فى أن تُسْفَك دماؤهم كما سُفكت دماء شهد أنهم : الحسين وزيد بن على ، ومن قبلهما على نفسه . ودائماً يبكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شىء ، وإنهم ليدلعون فى قلوبهم ناراً لاتُطْفَأ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلا عند كثيِّر شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيِّر (١)

هو كثيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة ، شاعر حجازى من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمَّقاً وفى الأغانى أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لجميل بن مَعْمر العذرى ، وهو فى جمهور غزله يترنَّم بعزَّة بنت حُمَيل الضَّمْرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّى كثير عزَّة ، وأروعُ أشعاره فيها تائيته التى يقول فى تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وهو يلتزم فى رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً فى غـزله ، ويقول ابن سلام : إنـه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفى لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكَيْسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

(١) انظر فى ترجمة كثير أغانى (دار الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفى مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ و ما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢ والخزانة ٣٧٦/٢ ومرآة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعاء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه فى الجزائر .

قبس النبوة لا يزال يتنقل فى على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وفيه يقول :

هو المهدىُّ خبَّرَناه كعبٌ أخو الأحبار فى الحِقَب الأوالى[1]

ونراه يمتلىء حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفى له فى الكوفة و إخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيِّر يقول :

تخبَّر من لاقيت أنك عائذٌ بل العائذُ المظلومُ فى سجْن عارمِ
وصىُّ النبيِّ المصطفى وابنُ عمِّه وفكَّاكُ أغلال ونفَّاعُ غارمِ
أبىَ فهْو لا يَشْرى هُدًى بضلالةٍ ولا يتَّقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابَه حُلولا بهذا الخَيْف خيف المحارم[2]
بحيث الحمامُ آمِنُ الرَّوْع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المُسالمِ
وما فَرَحُ الدنيا بباقٍ لأهله ولا شِدَّةُ البَلْوَى بضَرْبة لازمِ

وواضح أنه يسجِّل على ابن الزبير خرْقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذى يأخذ بأيدى العُناة ، والذى يتقى الله حق تقواه .

ويردُّ ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك فى دمشق ، وكثيِّر فى رِكابه ، فيكرمه وينزله منزلا عليًّا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

---

(١) كعب : هو كعب الأحبار ، كان ممن يقصون فى العهد الأول .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ اراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ هَمَّهُ … حَصانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُها[1]

نهته فلما لم ترَ النَّهْىَ عـاقَه … بكتْ فبكا مما شَجاها قَطينُها[2]

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليها وظن بعض المعاصرين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق[3] ، وهو لم يكن فى مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية فى بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهى تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمِّل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلِّب عَيْنَى حَيَّـةٍ بمِحَارةٍ … إذا أمكنتْه شدَّةٌ لا يُقيلها[4]

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة على ، لأنها الخلافة الصحيحة فى رأيه بين تلك الخلافات الظالمة : يقول :

وكنت المُعَلَّى إذ أُجِيلَتْ قِدَاحُهم … وجـال المَنِيحُ وسْطها يَتَقَلْقَلُ

والمعلَّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موَّه بذلك فى الظاهر ، وعنى فى الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

---

(١) الحصان : العفيفة .

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .

(٣) انظر حديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/٣٦٣ .

(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة : الهجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه يبرم عزمته ولا يتردد .

obeikandi.com

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن ثَمَّ يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك فى مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخـــلائف بعد الرسو ل لله كلهمُ تابعـــا
شهيدان من بعد صِدِّيقهم وكان ابنُ حَرْب لهم رابعا [1]
وكان ابنهُ بعده خامسا مطيعا لمـــن قبله سامعا
ومروان سادسُ مَنْ قد مضى وكان ابنُه بعده سابعا

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته فى مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له فى مديحه لبنى أمية . وهو إخلاص مرجعه فى رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتًّا من سبِّهم على المنابر ، وكان صالحا تقيًّا ، وفيه يقول كثيِّر مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلِيتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِفْ بَرِيًّا ولم تَتْبَعْ إشارةَ مجرمِ
وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لُبْسَ الهَلوكِ ثيابها تراءى لك الدُّنْيا بكفٍّ ومِعْصَمِ [2]
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنظَّمِ [3]
فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنما سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَمِ [4]
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مونقًا وآثرتَ ما يَبْقَى برأىٍ مصمِّمِ
وأضررتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للذى أمامك فى يومٍ من الهَوْلِ مظلمِ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدىّ أو وصىّ ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

---

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السمام : جمع سم .

مماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول فى ابن الحنفية حين لبىّ نداء ربه :

أَلا إن الأئمّة من قريشٍ ... ولاةَ الحق أربعةٌ سَواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيهِ ... هم الأَسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسِبطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتّى ... يقود الخَيْلَ يَقْدُمُها اللِّواءُ
تغيَّب لا يُرَى عنهمْ زمانا ... بِرَضْوَى عنده عَسَلٌ وماءُ

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون فى هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قَتْل الحسين فى كَرَبْلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْعم العسل والماء ، وسيعود فى جيش كثيف يقوّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتّى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِئْتُ إلى الإله من ابن أَرْوَى ... ومن دين الخوارج أجمعينا[١]
ومن عُمرٍ بَرِئْتُ ومن عتيقٍ ... غَداةَ دُعِى أمير المؤمنينا[٢]

وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق فى لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم فى رأيه يُعَدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو فى تشيعه غلوًّا قبيحاً حتّى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت[٣]

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

---

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه.
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
(٣) انظر فى ترجمة الكميت وأخباره أغانى (ساسى) ١٥ / ١٠٨ والشعر والشعراء ٢ / ٥٦٢ والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ١ / ٦٩ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ٦٦ ، ٩٩ ، ٢ / ٨٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه فى بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات .

obeikandl.com

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوى وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة فى مسجد الكوفة . ونراه يَشْدو الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطِّرِمَّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففى أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا فى مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك . ويقال إنه لقى على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه فى مطالع القرن الثانى يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففى أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفى سنة تسع وتسعين . ونمضى معه إلى ولاية خالد القسرى على العراق (١٠٥ – ١٢٠ هـ) فنجده قد أصبح شيعيًّا خالصاً . وقد استخلصه لنفسه زيد بن على بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع . ويعيش لهذا النضال والدفاع . إذ أُشرب قلبه حبَّه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ ... ولا لَعِباً منِّى وذو الشَّيْب يلعبُ

ولم تُلْهِنى دارٌ ولا رَسْم منزلٍ ... ولم يتطرَّبْنى بَنَانٌ مُخَضَّبُ

ولكنْ إلى أهل الفضائل والنُّهى ... وخير بنى حَوَّاءَ والخيرُ يُطْلَبُ

بنى هاشمٍ رهطِ النبىِّ فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضبُ

فلم يعد فيه شىء للغزل ولا للحب سوى حب بنى هاشم . وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى ، أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن فى نظمه . ونراه فى تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بنى أمية وواليهم خالد القسرى . إذ كان ما ينى يؤلِّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة . حتى لنراه يكتب – كما أسلفنا – إلى أهل مرو أن يثوروا فى وجه أسد القسرى حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه فى غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرَّاس ، فدخلت فى غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتهيأ بهَيْئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَّته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بثيابهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذى توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفى بنى أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرتُ إلى أُميَّـ ـة والأُمـور لها مصائرْ
أهلِ التجاوب فى المحا فل والمقاولِ بالمخاصر[1]
أنتم معـادنُ للخلا فة كابراً من بعد كابر

وهى مدائح تُحْمَل على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمن هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمنى هو حَكيم بن عيَّاش الكلبى كان يتعصب للأمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن على هجاء[2] مرًّا ، فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفَتْح معركة معه فى اليمنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بنى هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يمكر به فيفخر عليه ببنى أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهَر عليه فعلا لا بذلك فحسب ، بل بما نظم فى عصبيته لمضر وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهَّبته[3] : (ألا حُيِّيت عنا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجَّلها ووصمه بها وصمًا .

---

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه . والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها فى الخطابة

(٢) انظر فى ذلك ترجمته فى الأغانى والإصابة ٢/٨٠ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٨ .

(٣) فى خزانة الأدب ١/٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغانى (طبع الساسى) ١٥/١١٢ والمسعودى (طبعة دار الرجاء بمصر) ٣/١٦٢ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشمين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثَمَّ قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشْفَعُ به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يُعَدّ صدًى قويًّا لما شاع فى عصره من الجدال بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثَّل هذا الجدال تمثيلا باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدال ، فقد كان إمامه زيد يتتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقَّن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية . وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياته التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌّ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سُنَّةَ من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوق الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بخاتمكم غَصْباً تجوز أُمورهم فلم أَرَ غَصْباً مثله يُتَغَصَّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم آيةً تأوَّلها منا تقِىٌّ ومُعْرِبُ
وفى غيرها آيًا وآيًا تتابعتْ لكم نَصَبٌ فيها لذى الشَّكِّ مُنْصِبُ
وقالوا ورثناها أبانا وأُمَّنا وما ورَّثَتْهُمْ ذاك أُمٌّ ولا أَبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنةَ الذى بهِ دانَ شرقٌ لكم ومغرِّبُ
يقولون لم يُورَثْ ولولا تُراثُهُ لقد شَرِكتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحَبُ [١]

---

(١) بكيل وأرحب : عشيرتان من همدان

obeikandi.com

وعَكٌّ ولَخْمٌ والسَّكون وحِمْيَرٌ وكِنْدَةُ والحَيَّان بكرٌ وتغلبُ
وما كانتِ الأنصارُ فيها أذلَّةً ولا غُيَّباً عنها إذ الناسُ غُيَّبُ
فإن هي لم تصلح لحيٍّ سواهمُ فإن ذوى القُرْبَى أحقُّ وأقرب

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن الحكيم فى سُوَر « حاميم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقرابتهم من الرسول ، مقررة حقّ ذوى القربى من مثل : (وآت ذا القربى حقَّه) ومثل : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُرْبى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا يُدْلون للرسول كما يدلى آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية تارة ويحكِّم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلا محاولا الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت — فى أصلها — من أكثر العقائد الشيعية اعتدالا وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا بَبداء ولا برَجْعة على نحو ما كان يؤمن الكَيْسانية ، وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم غدير خُمٍّ ، وفى ذلك يقول الكميت :

ويومَ الدَّوْح دَوْحِ غَديرِ خُمٍّ أبانَ له الولايةَ لو أُطيعا[1]

وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك صحَّح خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا أرضى بشَتْم أبى بكر ولا عمرا

ومعروف أن زيداً كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتِّم أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخيًّا[2] ، ويُردِّد الكميت فى هاشمياته هذه الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

---

(١) غديرخم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول وخطب فيه .

(٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُماة الكُفاة فى الحرب إن لُفَّ ضِرامـــا وقـــودُها بضِرامِ
والغيوثُ الذين إن أمْحَلَ النَّاس فمأْوى حواضن الأيتـــام
غالبيِّين هاشميين فى العِلْم رَبَوْا من عطية العَلَّام[١]
وهمُ الآخذون من ثقة الأَمْر بتقواهمُ عُرًى لا انفصام[٢]

ويضيف الكميت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف فى تقريره لهذه الصفة عند جور بنى أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله فى رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم أغنام ، مبتدعين دائماً بِدَعاً لم يجئْ بها الإسلام . يقول

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يُحْدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أوْحَلُوا

ودائماً يجأر لربِّه أن يكشف غُمَّتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ، وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب . وإنه ليسأل الله أن يُحِلّ الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجـــاع الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ بِجَوْرِكمُ أُجيعا
بمرضىٍّ السياسة هاشمىٍّ يكون حَيًّا لأمته ربيعا[٣]

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق المذهب الذى ذهب إليه الكميت فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السِّراج المنير أحمدَ لا تَعْدلُنى رَغْبَةٌ ولا رَهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع النَّاس إلىَّ العيونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ بل قصدتُ ولو عنَّفنى القائلون أو ثَلبوا

---

(١) ربوا : نموا من التربية .
(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .
(٣) الحيا : المطر .

obeikandi.com

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنّفونه[١]» . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته[٢] . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فقعد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسي بما دون وَثْبَةٍ تظلُّ لها الغِرْبان حولَ تَحْجِلُ

وخرج زيد وقُتل ، فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمِّساً الناس أن ينفضُّوا عنه وعنهم . وضيّق عليه يوسف الخناق ، وظلّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلّ ضغنه دسّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بني أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء .

وسلّط عليهم الأمويون ولاةً يتعنّفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة ، ويُحسّ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٩ .
(٢) أمالي المرتضى ٢/٨٠ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسَّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى يرجع فى نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتيهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كى يقود هذه الثورة التى كانت تغلو بها نفوس الأشراف فى الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبى بَكرة عامل سجستان أخفق فى حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمداً .

وفكر الحجاج فى قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهداه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان فى كَرْمان ، فأمده بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس ، لتمام أهبته وعُدَّته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى — خشية على جيشه — أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبى بكرة . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالفتور والضعف ، ويهدِّده إن لم يمض فى القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدَّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهليهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالى بموتنا ، ويريد أن يعرِّضنا للخطر ، حتى نسوق له وخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه فى طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بحاميات الأمصار ، ولما صار فى فارس خلع عبدَ الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش « مثل السيل المنحطّ من عَلُ ، ليس يرده شىء حتى ينتهى إلى قراره » وأعشى همدان وأبو جِلْدَة اليشكرى فى مقدمته يثيران الناس ويحمِّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلُّوا دورهم بينما أُخرِجوا منها

للحرب والموت فى سجستان وخُراسان على نحو ما نرى فى قول أبى جِلْدة[١] :

أيا لهفى ويا حُزْنى جميعاً ... ويا غَمَّ الفُـؤادِ لما لقينـا
تركنـا الدِّين والدُّنيا جميعا ... وخَلَّينـا الحـلائل والبنينا[٢]
فما كنا أُنَاساً أهل دينٍ ... فنَصْبِرَ للبلاءِ إذا بُلينا
ولا كنا أُناساً أهل دُنْيا ... فنَمْنَعهـا وإن لم نَرْجُ دينا
تركنا دورنا لطَغام عَكٍّ ... وأنباطِ القُرَى والأَشْعَرِينا[٣]

وتقدَّم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دُجَيْل فى ذى الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ، ومضى الحجاج فنزل بجيشه فى ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جلدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله[٤] :

نحن جلبنا الخَيْلَ من زَرَنْجا ... مالك ياحجّـاج منا مَنْجَى[٥]
لتُبْعَجَنَّ بالسيوف بَعْجَـا ... أو لتَفِرَّنَّ فـذاك أَحْجى[٦]

وما زال أبو جلدة يحمس الجنود ويبث الغَيْرة فيهم لنسائهم ، حتى شدُّوا على عسكر الحجاج شدة ضعضعته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ، فتراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دير الجماجم ، وفيها هُزم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به فى « مسكن » فحالفته الهزيمة ، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ، وبعد محاولات منه لرَجْع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقُطِعَت رأسه ، وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبى جلدة شعراء كثيرون لحّوا فى هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة .

---

(١) مرت فى الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر فى الأبيات أغانى (دار الكتب) ٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد . وعك : من قبائل الشام اليمنية . ومثلها الأشعر قبيلة يمنية . وسماهم أنباطا يريد أنهم ليسوا بدواً ، فهم فلاحون .

(٤) أغانى ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصبة سجستان

(٦) البعج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر

أعشى [١] همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهَمْدانىّ القَحْطانىّ، نشأ فى الكوفة، وعُنى فى أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لنرى الشَّعْبى فقيه الكوفة المشهور يُصْهِر إليه، فيتزوج أخته ويزوِّجه أخته. وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوى، وأقبل عليه، وآخى أحمد النَّصْبى مغنى بلده، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه. وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصارى الذى ولى على الكوفة سنة تسع وخمسين، وفيه يقول:

متى أكْفُرِ النعمانَ لم ألفَ شاكرا ... وما خيرُ من لا يقتدى بشكورِ

وله أشعار ينزع فيها منزع زهد فى الدنيا، فهو ينفِّر منها ومن التعلق بمتاعها؛ وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار فى أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبى وغيره من وعَّاظ الكوفة، ومن أطرفها قوله:

وبينما المرء أمسى ناعماً جَذِلاً ... فى أهله مُعْجَباً بالعَيْش ذا أَنَقِ [٢]

غِرًّا، أُتيح له من حَيْنه عَرَضٌ ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِق

فما تزوَّد مما كان يجمعـه ... إلا حَنوطاً وما واراه من خِرَق [٣]

وغيرَ نَفْحَة أعوادٍ تُشَبُّ له ... وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلق

ونراه حين هُزِم التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبكيهم بقصيدة كانت إحدى المكتَّمات التى كتمت فى ذلك الزمان [٤]. ويتولَّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه فى سلمه وحربه للمختار الثقفى ناظماً أشعاراً كثيرة، رواها الطبرى، يصوِّر فيها شعوذة المختار الثقفى وما كان يتخذ من

---

(١) انظر فى ترجمة أعشى همدان الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٣٣ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبرى والجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى وله ديوان نشره جاير ملحقاً بديوان أعشى قيس.

(٢) أنق: فرح وسرور.

(٣) الحنوط: طيب يتخذ للميت خاصة.

(٤) طبرى ٤/٤٧٢.

كُرْسى وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده[١] . ويُدال للبصرة من الكوفة ، ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته . ويتوجه إليهم بالخطاب قائلا :

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكمُ يوم الجَملْ[٢]

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه فى موقعة جَلُولاء . وقد انتصر الخوارج ، فمضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه يجفوه ، فيهجوه . ونراه فى شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بَذائها . ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْران ، فيمرض هناك ، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغمه ، خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج فى بلاد الديلم ، فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعِلْج الذى أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ، وبذلك تخلّصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يُوَلّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبى بكرة زنبيل ملك الترك ، ولما دارت على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبى بكرة سواء فى قيادته غير الحكيمة أو فى إهداره لمسئولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه من ضيق ، فباع القفيز من الشعير بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرِم ، وهم يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسمعتَ بالجيش الذين تمزّقوا ... وأصابهم رَيْبُ الزمان الأعوجِ

حُبسوا بكابُلَ يأكلون جِيادهم ... بأضرِّ منزلةٍ وشرِّ مُعَرَّجِ[٣]

لم يلق جيشٌ فى البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قُلْ للنوائح تَنْشِجِ

(١) انظر الطبرى ٤/٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

obeikandi.com

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وُلِّيتَ شَأْنَهُمُ وكنتَ أميرهم فأضعتهم والحرب ذاتُ توهُّج
وتَبيعهم فيها القفيزَ بدرهمٍ فيظلُّ جيشك بالملامة ينتجي (١)
ومَنعتهم ألبانَهم وشعيرهم وتَجِرْتَ بالعنب الذى لم ينْضَج

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فولِّيَ سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن يزيد فى عطائه ، فلم يُلبِّ سؤاله ، فمضى يعاتبه فى قصيدة طويلة ، يقول له فى تضاعيفها :

مالك لا تعطى وأنت امرؤٌ مُثْرٍ مِن الطَّارفِ والتَّالدِ
تَجْبي سجستانَ وما حولها مُتَّكِئاً فى عيشك الراغدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى يده فى يده وكأنه صَدَرَ فى ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم فى صفوف المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاة بنى أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها العذاب على نحو ما رأينا فى هجائه لابن أبى بكرة . وهذا الحجَّاج على العراق قد بغى وطغى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج فى بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَماً ، لا يعرف متى يأذن له فى العودة لتقرَّ عينه بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر محمِّسا لجنده ، فلما توجه مقبلا إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إنا سفَوْنا للكفور الفتَّانْ حين طغى فى الكفر بعد الإيمانْ (٢)
بالسيد الغِطْرِيف عبد الرحمن سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحطانْ (٣)
أمكن ربِّى من ثقيفٍ هَمْدان يوماً إلى الليل يُسَلِّي ما كانْ
إن ثقيفا منهم الكذَّابان كَذَّابُها الماضى وكذابٌ ثانْ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهى السر . (٣) الدبى : الجراد .
(٢) سفا : خف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرّضهم على القتال ، ونجده فى هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ؛ وما كان لآبائه من مُلك وشرف وسيادة فى الجاهلية ، وهو بذلك يضع فى يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهى كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلى النبيلة ، يقول :

يأْبَى الإله وعزةُ ابنِ محمَّد ... وجُدود مَلْكٍ قبل آل ثمودِ[1]
أن تَأْنَسُوا بِمُذَمَّمين عُروقُهم ... فى الناس إن نُسبوا عروقُ عبيدِ
كم من أب لك كان يَعْقد تاجَه ... بجبين أَبْلَجَ مِقْوَلٍ صِنْديدِ[2]
ما قصرَّتْ بك أن تنال مدى العُلا ... أخلاقُ مكرمةٍ وإرثُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأُتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أبَى اللهُ إلا أن يتمِّم نوره ... ويطفئَ نار الفاسقين فتَخْمُدَا
ويُنْزِل ذُلاًّ بالعراق وأهله ... لِما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدَا
وما نكَثُوا من بَيْعَةٍ بعد بيعةٍ ... إذا ضَمِنوها اليوم خاسوا بها غَدَا[3]
وما أحدثوا من بِدْعَةٍ وعظيمةٍ ... من القَول لم تَصْعَدْ إلى الله مَصْعَدَا
وما زاحف الحَجَّاجُ إلا رأيته ... مُعَانًا مُلَقًّى للفتوح معوَّدا
ليهنئْ أميرَ المؤمنين ظهورُه ... على أمةٍ كانوا بُغاةً وحُسَّدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فاربدّ وجهه واهتزّ منكباه ، وأمر الحرسىّ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

---

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بآل ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب . صنديد : الجواد الشجاع

(٣) خاس : غدر ونكث

obeikandi.com

٥

شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدّاح بنى أمية ، فالمديح شيء والشعر السياسى شيء آخر . المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثَمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شِيَعاً ، وأخذت كل شيعة تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صِفّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىٌّ انتصاراً حاسماً لولا ما لجأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبى :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا علىٌّ إمامٌ لنـــا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا

وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال ينقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم علىٌّ بأهل العراقِ وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق فقدْ مَّا رضينا الذى تكرهونا[1]

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم ، وبايع الناس معاوية ، ودخلت العراق فى طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ، وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز فى عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها فى عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون فى هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر . وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفى رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ، فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصرانى التغلبى ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويًّا يناضل عن السياسة الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وأن يأخذ البيعة لابنه يزيد فى حياته . وكان ذلك فى رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعَرَف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك ، فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع من لبَّاه منهم مسكين الدارمى فأنشأ يقول فى كلمة له[2] :

---

(١) انظر الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ١٧٠ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٧١ .

بنى خُلفاء الله مهلا فإنما يُبَوِّئها الرحمنُ حيث يريدُ[١]
إذا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خلَّى مكانه فإن أميرَ المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ لكلِّ أُناسٍ طائرٌ وجدودُ[٢]

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل[٣] الليثي وعبدالله[٤] بن همّام السلولي « وكان مكينًا حظيًّا فيهم وهو الذى حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » فى أشعار يرويها الرواة ، كان يرثى فيها أباه ويحضه على البيعة لابنه من مثل قوله[٥] :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذامِقَةً واشكر حباءَ الذى بالمُلْك حاباكا
لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوام نعلمه كما رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعُقْباكا
أصبحتَ راعيَ أهل الدين كلِّهم فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا
وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ إذا نُعيتَ ولا نَسْمَعْ بِمَنْعاكا

ونمضى إلى عصر المروانيين ، وأول من نلقاه من شعرائهم أبو العباس[٦] الأعمى الشاعر المكى مولى بنى الدُّئل يقول أبو الفرج الأصبهانى : « كان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدَّمين فى مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم » ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حَيًّا مثل حَيٍّ تحمَّلوا إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت[٧]
أعزَّ وأمضى حين تَشْتجر القَنا وأعلمَ بالمسكين حيث يَبيت

---

(١) يبوئها : ينزلها .
(٢) الجد : الحظ .
(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/١٥٩ .
(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٦٣٣ وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٣/٦٣٨ .
(٥) البيان والتبيين ٢/١٣٢، والمبرد ص ٧٨٥ وراجع المصادر السابقة .
(٦) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع الساسى) ١٥/٥٧ ونكت الهميان للصفدى ص ١٥٣ ومعجم الأدباء ١١/١٧٩ والتهذيب ٣/٤٤٩ والبيان والتبيين ١/٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٧) تحملوا : ارتحلوا . بريت : خلقت .

إذا مات منهم سَيِّدٌ قام سيد بصيرٌ بعَــوْرات الكلام زَميت[١]

وقوله :

ليت شعرى أفـــاح رائحة المِسْـ ـكِ وما إن أخال بالخَيْف أنْسِى[٢]

حين غابتْ بنو أُميَّـــة عنه والبهَاليـــلُ من بنى عبد شَمْسِ

خطباءٌ على المنابر فُرْسا نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أَصابوا ولم يقولوا بِلَبْسِ

وبلغ ابن الزبير نُبَذٌ من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجوه وآله هجاء مرًّا ، محرضاً عبد الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن بنى هاشم ، وفى ذلك يقول لأبى الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًّا :

لعمرك إننى وأباطُفَيْلٍ لمختلفـــان واللهُ الشهيدُ

لقد ضَلُّوا بحب أبى تُرابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ

ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتُرْوَى له أشعار مختلفة — إن صحت — فى بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأَسرَّة منهمُ فعليهمُ حتى الممــاتِ سلامُ

وممن كان يلهج بهم ويقف فى صفوفهم نابغة بنى شيبان[٣] عبد الله بن المخارق ، ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًّا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التى يحلف بها النصارى ، وفى ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل قوله :

ويَزْجرنى الإسلامُ والشَّيْبُ والتُّقَى وفى الشَّيْبِ والإسلام للمرءِ زاجرُ

---

(١) زميت : وقور .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

(٣) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٧/١٠٦ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مَثَل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول فى تضاعيفها :

لَابْنُكَ أولى بمُلْكِ والده ونَجْمٌ من قد عَصاك مطَّرَحُ

فعلم الناس أن هذا هو رأى عبد الملك . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه فى الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .

وعلى شاكلته فى الانتصار لبنى مروان أعشى قبيلته عبد[1] الله بن خارجة ، وكان شديد التعصب لهم ، وله فى عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجِلِ النِّتاجُ بِحَمْلها فأحالها[2]
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغواة أطلتمُ إمهالها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثِمالها[3]
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

ومن شعراء بنى أمية أبو عطاء[4] السِّنْدِىّ مولى بنى أسد ، وكانت فيه لُكْنة سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاة الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مراثى بديعة . وقد عاش إلى أيام المنصور ، ونراه يبكى بنى أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين فى أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت جَوْرَ بنى مروانَ عاد لنا وأنَّ عدل بنى العباس فى النار

وقوله :

بنى هاشمٍ عودوا إلى نَخَلاتكمْ فقد قام سِعْرُ التَّمْر صاعاً بدرهمِ
فإن قلتمُ رَهْطُ النبىِّ وقومُهُ فإن النصارى رَهْطُ عيسى بن مريمِ

(١) انظر ترجمته فى الأغانى طبع (ساسى) ١٥٥/١٦ وقد نشر جاير ديوانه ملحقاً بديوان أعشى قيس .
(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .
(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .
(٤) انظر فى ترجمة أبى عطاء أغانى (ساسى) ٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة ١٧٠/٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦ والعينى ٥٦٠/١ .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبنى أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص فى الوليد بن عبد الملك[١] :

تخيَّرهُ ربُّ العباد لخلقهِ وَلِيًّا وكان الله بالناس أعْلَما

وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم فى سليمان[٢] :

سُمِّيتَ باسم امرىء أشبهتَ شِيمَته عَدْلا وفضلا سليمانَ بنَ داودا
أحْمِدْ به فى الوَرَى الماضين من ملكٍ وأنت أصبحتَ فى الباقين محمودا

وكان فى زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد فى تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثيِّر، ويقول العَبْلى فى هشام بن عبد الملك وأسلافه[٣] :

يَقْطعون النهارَ بالرأْى والحز م ويُحْيُون ليلهم بالسجودِ

والغريب أن نجد هذا التصوير يمتدُّ حتى إلى من عُرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبَّة[٤] :

إمامٌ يُوضِحُ الحقَّ له نورٌ على نورِ

ولما اضطربت الدولة فى عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يحتربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبدتْ فى الأفق النُّذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة فى دياره قائلا[٥] :

أرى خَلل الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ فيوشك أن يكون له اضطرامُ
فقلتُ من التعجّب ليتَ شعرى أأيقاظٌ أميَّةُ أم نِيامُ
فإن كانوا لحينهمِ نِياماً فقل قوموا فقد طال المنام

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٢٩٨ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٢٨٨ .
(٣) أغانى ١١/٣٠٦ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/٩٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/١٥٨ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضتْ حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبى عطاء السندى ونقف الآن عند شاعرين مهمين من شعرائهم .

عبد الله[1] بن الزَّبِير

كوفى المنزل والمنشأ من بنى أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدرهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجوه ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراختْ منيَّتى أيادىَ لم تُمْنَنْ وإن هى جَلَّتِ
فتىً غير محجوبِ الغنى عن صديقه ولا مُظْهِر الشكوى إذا النَّعْلُ زَلَّت
رأى خَلَّتى من حيث يَخْفى مكانُها فكانتْ قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ[2]

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدَ إلا مَجْدُ أسماء فوقه ولا جَرْىَ إلا جَرْىُ أسماء فاضلُهْ
فَتًى لا يزال الدهرَ ما عاش مُخْصِباً ولو كان بالمَوْماة تَخْدِى رَواحلُه[3]

وعُزِل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ اللهِ والمجدُ صفوة الـ حليفين ما أَرْسَى ثَبِيرٌ ويَثْرِبُ[4]
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ فأَبْشِرْ فقد أدركتَ ما كنت تطلبُ

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٢١٧/١٤ وما بعدها والخزانة ٣٤٥/١ ومعاهد التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

(٣) الموماة : المفازة . تخدى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتوفى يزيد بن معاوية، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفى فيتحول إليه ابن الزّبير يتوعده ويتهدّده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمنُّ عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيهــا العائذُ فى مكةَ كمْ من دمٍ أهْرَقْتَه فى غير دَمْ
أيَدٌ عــائذةٌ معصمةٌ ويدٌ تقتل مَنْ حَلَّ الحَرَمْ

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كأنى بعبد الله يركب رَدْعَــه وفيه سِنان زاعِبِىٌّ مُحَرَّبُ[1]
وقد فَرَّ عنه الملحدون وحلَّقتْ بهِ وبمن آساه عَنْقاءُ مُغْرِب[2]
تولَّوا فخلَّوه فشالَ بشِلوِهِ طويلٌ من الأجذاع عارٍ مشذَّبُ[3]
بكفَّى غلامٍ منْ ثَقيفٍ نَمَتْ به قريشٌ وذو المجد التَّليد معتَّبُ

ويلزم بشر بن مروان فى ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفِّى فى خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعش طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمىَ بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرْهَبُ شره .

عدى[4] بن الرِّقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسْلك فى حاضرة الشعراء . وكان مقدَّماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدّاحاً

---

(١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلا يتشحب دمه . والزاعبية : ضرب من الرماح . محرب : محدد .

(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم .

(٤) انظر فى ترجمة عدى وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسى) ١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء ٦٠٠/٢ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥٨ ، ٥٥١ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص٨٦ والاشتقاق ص٣٧٥ والموشح ص١٩٠ والطرائف الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم، خاصًّا منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك فى مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس فى الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك فى حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له :

لعمرى لقد أصْحرتْ خيْلُنا ... بأكنافِ دِجْلة للمُصْعَبِ[1]
يَهزُّون كلَّ طويل القنا ... ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلَبِ[2]
تقدَّمَنا واضحٌ وجْهـه ... كريمُ الضرائب والمَنْصِبِ[3]
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا بهِ ... ومن يَنْصُرِ اللهُ لم يُغْلَب

ولا نكاد نمضى فى عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذه شاعره الرسمى ،حتى ليُعليه على جرير فى بعض مجالسه، ويثور جرير ، ويهجوه، فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل فى رعايته يصنِّفيه مدائحه ، ويتغنى له فيها المغنون ، ومما غنَّى له ابن سُرَيج فيه قوله :

صَلَّى الذى الصَّلواتُ الطيِّباتُ له ... والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمَعا
هو الذى جَمع الرحمنُ أُمَّته ... على يديه وكانوا قبله شِيَعَا
إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعَا

وقوله :

صَلَّى الإلهُ على امرىء ودَّعتُه ... وأتمَّ نعمتَـه عليه وزادها
أوَلا تَرى أن البَريَّة كلَّها ... ألقتْ خـزائِمَها إليه فقادها[4]
ولقد أراد الله إذ ولاَّكهـا ... من أُمَّة إصلاحَهـا ورشادها
أعْمَرْتَ أرض المسلمين فأقبلتْ ... ونفيتَ عنها مَنْ يروم فسادَها

(١) أصحرت : برزت
(٢) الثعلب : رأس الرمح
(٣) الضرائب : الطباع
(٤) الخزائم : جمع خزامة . وهى البرة يخزم بها البعير فى أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

وأصبتَ في أرض العدوِّ مصيبةً … عَمَّتْ أقاصيَ غَوْرِها ونِجادَها

ظَفَرًا ونصْرًا ما تناول مثلَه … أحدٌ من الخلفاءِ كان أرادها

وإذا نَشَرْتَ له الثناءَ وجدتَه … جَمعَ المكارمِ طِرْفَهَا وتِلادهـا[1]

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولا بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والتئام شعثها ، وقد انقادت إليه بأزمتها ، والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلى عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ، وكيف أعمر أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده منزلا على أعدائها صواعقه ، فتمحتهم محقاً .

وفى أشعاره ما يدل على أنه كان يُعْنَى بها عناية شديدة إذ ما يزال يصقلها ويشذبها حتى تلين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلا عقله ، يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها … حتى أُقوِّم مَيْلَها وسِنادها[2]

نظرَ المثقِّف في كُعوب قَناته … حتى يُقيم ثِقافُه منآدَها[3]

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ، ومن بديع وصفه لظبية ترتعي ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُزْجى أغَنَّ كأنَّ إبرة رَوْقِهِ … قلمٌ أصابَ من الدواة مِدادها[4]

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وكأنها وسْطَ النساءِ أعارها … عينيه أحْورُ من جآذرِ جاسمِ[5]

وَسْنانُ أقصَده النُّعاسُ فرنَّقتْ … في عينه سِنَةٌ وليس بنائم[6]

---

(١) طرفها : حادثها . تلادها : قديمها .

(٢) السناد : من عيوب الروى .

(٣) المثقف : الذى يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منآدها : معوجها .

(٤) تزجى : تسوق . الأغن : الشادن فى صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه المحدد .

(٥) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . وجاسم : من قرى دمشق .

(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

obeikandi.com

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غَبْراء محكمةً هما نسجاها
تُطْوَى إذا عَدَوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتْ نَشراها

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد نبيت يَدُ الفتاة وسادةً لىَ جاعلا يُسْرَى يدىَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .